رماح للبحوث والدراسات
(مجلة دولية علمية محكمة)
العدد (114) كانون الثاني (يناير) 2025

صورة الحضارة في شعر البحتري

اعداد:
د. علي عبد الكريم خليف الحوامدة

ISSN الورقي: 2392- 5418
ISSN الالكتروني:2520- 7423
DOI: 10.59799/SQZH5356

صورة الحضارة في شعر البحتري

د. علي عبد الكريم خليف الحوامدة

Aliabdalhawamdeh@yahoo.com

الملخص

هدفت الدراسة إلى التعرف إلى صورة الحضارة التي وصفها البحتري من خلال أشعاره، من خلال التعريف بالشاعر، وطريقته في الوصف، واللغة والأسلوب. وكل ذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على وصف الظاهرة وتحليلها، حيث تم تقسيم الدراسة إلى مبحثين، يتضمن الأول التعريف بالحضارة لغة واصطلاحًا، في حين يشتمل المبحث الثاني على الصور الحضارية في شعر البحترين، ثم الخاتمة، ويلي ذلك ثبت المصادر والمراجع. وبينت النتائج أن البحتري قد برع في فن الوصف، حتى عُدّ من أربابه، لما له من شهرة في وصف جماليات الكوْن، ومعطيات الحضارة الحديثة، كالقصور، والجنان، وقد عدّه نقّاد العصر الحديث إمام الصنعة، وأنه فريد الوصف جيّده، وقد أكسبه الوصف شُهرة تميّز بها على أقرانه

الكلمات المفتاحية: الحضارة. البحتري. الكون، القصور. الجنان.

The Image of Civilization in Al-Buhturi Poetry

Dr. Ali Abdelkareem Khlaif Alhawamdeh

Abstract:

The aim of the study is to invetgate the image of civilization described by Al-Buhturi through his poems, by defining the poet, his method of description, language and style. All of this is done through the descriptive analytical approach based on describing and analyzing the phenomenon. The study was divided into two sections, the first of which includes defining civilization in language and terminology, while the second section includes the civilizational images in Al-Buhturi's poetry, then the conclusion, followed by a list of sources and references. The results showed that Al-Buhturi excelled in the art of description, to the point that he was considered one of its masters, due to his fame in describing the aesthetics of the universe and the data of modern civilization, such as palaces and gardens. Modern critics considered him the master of craftsmanship, and that he is unique in his description, and his description earned him fame that distinguished him from his peers.

Key Words: Civilization. Al-Buhtri. Universe. Palaces. Gardens.

مقدمة

يعد البحتري من كبار الشعراء في العصر العباسي الثاني، وقد أجاد القول في فنون الشعر التقليدية كالمدح والهجاء، والغزل والرثاء، وتألق في فن الوصف؛ إذ توافر له فيه من روعة الخيال وبراعة التصوير ما لم يتوافر لسواه من معاصريه، بل وصفه بعضهم بأنه زعيم فن الوصف في العصر العباسي.

إنّ الشاعر ابن بيئته، وما كان شعره إلا تصويرًا لتلك البيئة وما تحتويه من عناصر الحضارة والطبيعة المتاحة إليه، فكما صور شعراء الجاهلية البيئة الصحراوية من خلال وصف منابت العشب، وحياة الإبل، صور شعراء مثل البحتري الحضارة ومظاهرها في العصر الذي عاش فيه[1].

ويعدّ البحتري أحد أعلام الشعر في العصر العباسي، يمتاز شعره بالاستواء، وحسن العبارة، والبعد عن الغريب والتعقيد، ولقد حظي البحتري بالعديد من الصفات والألقاب، التي خلعها عليه النقاد القدامى، والتي توضح مدى اهتمامهم بشعره، وتكشف عن منزلته في دنيا الشعر العربي، فهو صاحب سلاسل الذهب، وهو من كبار الشعراء، وأصحاب الحكمة[2].

إن البحتري لم ينسلخ عن عصره، عصر التحضر والرقي، وعصر العلم والثقافة، ولم يظل في البادية طوال حياته، ولكنه ارتحل إلى المدن العباسية – وهو ابن السادسة عشر من عمره– التي كانت تموج في ذلك الوقت بالعلم والثقافة، مما جعله على اتصال

---

[2] الصيرفي، حسن، آراء النقاد القدامى في شعر البحتري، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت، ص 277.

[3] خليف يوسف، في الشعر العباسي: منهج جديد، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، 1900م، ص11.

بالثقافات الأخرى، وقضى معظم حياته في قصور الخلفاء، والوزراء والقادة[1]، حيث الحضارة والترف ومظاهر العمران المختلفة، وشاهد مدى تغلغل الحضارة في حياة القوم فانطلق يصف مظاهر الحضارة التي بهرته، وملكت عليه قلبه، فلا تكاد عيناه تقع على شيء من مظاهر الحضارة إلا ويودعها في شعره، فوصف القصور، والبرك، والنافورات، والرياض، ومجالس الشراب إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة[2].

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف إلى صورة الحضارة التي وصفها البحتري من خلال أشعاره، من خلال التعريف بالشاعر، وطريقته في الوصف، واللغة والأسلوب. وكل ذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على وصف الظاهرة وتحليلها، تحليلًا يقترب من التشريح– إن صح الوصف–. حيث تم تقسيم الدراسة إلى مبحثين، يتضمن الأول التعريف بالحضارة لغة واصطلاحًا، في حين يشتمل المبحث الثاني على الصور الحضارية في شعر البحترين ثم الخاتمة، ويلي ذلك ثبت المصادر والمراجع.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

أثرت الحضارة العباسية في أغراض الشعر ومقاصده، كما أثرت في معانيه، فانعكس عصر الترف والغنى والثروة، عصر القصور والملذات على مرآة الشعراء الذين تحولوا عن الوقوف على الأطلال ووصف الصحاري والوهاد، إلى وصف القصور الشاهقة، والمناظر الخلابة، وجوانب الحضارة المختلفة، وكان البحتري من أهم الشعراء الذي وصفوا مظاهر الحضارة في هذا العصر. وتناولت هذه الدراسة صورة الحضارة

---

[2] المرجع السابق، ص12.

[1] المرجع السابق، ص12.

التي وصفها البحتري من خلال أشعاره، من خلال التعريف بالشاعر، وطريقته في الوصف، واللغة والأسلوب، في محاولة للإجابة عن الأسئلة التالية:

1. من هو البحتري؟
2. ما مفهوم الحضارة لغة واصطلاحًا؟
3. ما مظاهر الحضارة التي وصفها البحتري في أشعاره؟
4. كيف صوّر البحتري المظاهر الحضارية في العصر العباسي في أشعاره؟.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى:

- التعريف بالبحتري.
- بيان الصور الحضارية السائدة في العصر العباسي.
- الكشف عن الصور الحضارية التي وصفها البحتري من خلال لغته، ووصفه، وأسلوبه.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية الدراسة من أهمية موضوعها الذي يقوم على التعرف إلى صورة الحضارة التي وصفها البحتري من خلال أشعاره، من خلال التعريف بالشاعر، وطريقته في الوصف، واللغة والأسلوب، ويأمل الباحث أن تثري هذه الدراسات التي تناولت الشاعر البحتري. وتأتي أهمية الدراسة من إمكانية استفادة المهتمين بمجال

الشعر العربي في التعرف على البحتري وأشعاره في الحضارة، كما تفتح الدراسة الباب أمام الباحثين للقيام بدراسات موسعة حول الموضوع.

حدود الدراسة: تتمثل حدود الدراسة في تناول أشعار البحتري التي عكست الصور الحضارية في الشعر العباسي.

منهج الدراسة: اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على وصف الظاهرة وتحليلها، تحليلًا يقترب من التشريح- إن صح الوصف-.

الدراسات السابقة

من الدراسات التي أشارت أو ألمحت إلى أثر الحضارة في شعر البحتري (العصر العباسي الثاني) للدكتور شوقي ضيف، حيث أشار عند حديثه عن البحتري وشعره إلى قدرة البحتري على وصف مظاهر العمران خاصة القصور والبرك[1]. ودراسة أحمد بدوي (البحتري) الذي أشار فيها إلى أن الحضارة العباسية قد تركت آثارها في شعر البحتري، ويبدو هذا التأثر في وصف القصور والطبيعة[2]. ودراسة حسين بلهادي (شعرية اللون في سينية البحتري)، حيث كشف فيها عن قيمة شعر البحتري الحضارية، ودوره في

---

[2] ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي: في العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج4، 1966م، ص 285-296.

[3] بدوي، أحمد، البحتري: سلسلة توابع الفكر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1980م، ص83.

بناء النص وتماسكه. وشغف الشاعر بالألوان وكيف وظفها، بوعي أو عن غير وعي لخدمة مقاصده الإبداعية الحضارية[1].

التعريف بالبحتري

قبل الشروع في تناول الموضوع الأساسي في الدراسة، لا بد من التعريف بشاعرنا، كي يتأقلم القارئ مع جو القصيدة، ويتفاعل مع الدراسة الوصفية التحليلية القائمة عليه.

هو أبو الوليد بن عبيد الله بن يحيى البحتري الطائي القحطاني عربي صميم، وكان قومه الطائيون يقطنون ضواحي منبج في بلاد الشام، وهي الآن مدينة من مدن سوريا. وكان البحتري يكنى أبا الحسن، وأبا عبادة، فأشير عليه في أيام المتوكل بأن يقتصر على أبي عبادة كونه أشهر بها، فاقتصر عليها[2].

ولد ببلدة (منبج) عام (206هـ- 821م) وهناك تثقف ثقافته الأولى، ونشأ في البادية بين قبائل قومه الطائيين، فغلبت عليه فصاحة العرب. ووصفه الأصفهاني في

---

[2] بلهادي، حسين، شعرية اللون في سينية البحتري، دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والدراسات، العدد (21)، 2018م، ص119.

[3] اليوسف، إسماعيل، البحتري: أخباره ونماذج من شعره، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا، ط1، 1988م، ص 8.

أغانيه: "كان البحتري من أوسخ خلق الله ثوبًا وآلة وأبخلهم على كل شيء"[1]، لكن بعض النقاد لم يتفقوا مع هذا الرأي وقالوا أن هذه العبارة فيها نظر[2].

كان البحتري شاعرًا فصيحًا حسن المذهب، نقي الكلام، وكان العلماء يختمون به الشعراء، وله تصرف حسن نقي فاضل في ضروب الشعر، سوى الهجاء، وقد صحب البحتري – طوال سني حياته– لفيفًا من الشعراء والعلماء والأدباء، والكتاب، والحجاب، والأمراء، والوزراء، والخلفاء، ما يتضح في قصائد المدح والهجاء والرثاء الواردة في الديوان[3]. فمن الشعراء الذي صحبهم وأخذ عنهم واقتدى بهم أبو تمام الطائي، ويعتبر البحتري تلميذه لا منازع وأمير الشعراء من بعده باعتراف أبي تمام له بذلك. ومن العلماء والأدباء الذي صحبهم أبو العباس المبرد، ومن الكتاب أبو يعقوب إسحاق بن نصير العبادي النصراني[4].

المبحث الأول: الحضارة لغة واصطلاحًا

---

[2] الأصفهاني، أبو فرج، الأغاني (تحقيق: غنيم الغرباوي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، ج21، د.ت، ص43.

[3] المرجع السابق، ص7.

[4] اليوسف، إسماعيل، البحتري: أخباره ونماذج من شعره، مرجع سابق، ص8.

[5] اليوسف، إسماعيل، البحتري: أخباره ونماذج من شعره، مرجع سابق، ص9.

الحضارة لغة هي " الإقامة في الحضر، يقال فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، وفلان حضري، وفلان بدوي، والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأنها أهلها حضروا الأمصار، ومشاكن الديار، التي بكون لهم بها قرار"[1]. والحضارة في الثقافة الغربية يعني مكان التجمع للناس، وحضورهم لإقامة مصالحهم وحياتهم المشتركة وحفظها[2].

فأصل معنى كلمة حضارة- عند العرب والأوروبيين- يعني الاستقرار في المدن، لأن الحياة الراقية المترفة، ومظاهر الرقي المختلفة توجد غالبًا في المدن، حيث تجتمع في المدينة الثروات، وتتبادل الأفكار، وتظهر الاختراعات، وتتطور الصناعات، مما يؤدي إلى الترف والرخاء، وحياة أفضل من وأرقي من حياة البادية.

ويمكن النظر للحضارة في الاصطلاح بأنها : ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أم غير مقصود، سواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"[3]. كما إن الحضارة " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد

---

[2] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت،م2، 1990م، (مادة: حضر)، ص187.

[3] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، 1985م، ص187.

[4] مؤنس، حسين، الحضارة. دار العبيكان للنشر والتوزيع، دولة الكويت، ط1، 1994م، ص13.

الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق"[1].

والحضارة العربية بدأت في العصور التي سبقت ظهور الإسلام بنحو عشرين قرنًا، وتمد جذورها عميقًا في الجزيرة العربية إلى قرون موغلة في القدم وتعد من حيث الأهمية مضاهية بحضارة الفراعنة، والبابليين والأشوريين، وقد ساهمت في الحضارة الإنسانية، ولم تكن في عزلة عن العالم، بل اتصلت به عن طريق التجارة اتصالًا وثيقًا وأثرت فيه وتأثرت به وشاركت في الحياة البشرية ماديًا و روحيًا[2].

وما يهمنا من أمر الحضارة تناولها في العصر الذي عاش فيه البحتري، حيث يلاحظ الدارس للشعر العباسي أن هناك الكثير من معالم التطور والحضارة التي تؤكد المستوى الحضاري الراقي الذي وصل إليه العصر العباسي، لتوفر العوامل الحضارية في بيئة العراق التي ساعدت على بناء حضارة عباسية بديعة، بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء، من بني العباس، بالإضافة إلى توفر العوامل الأخرى التي أسهمت في إيجاد

---

[2] ديورانت، بول، قصة الحضارة (ترجمة: زكي نجيب محمود)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ج1، 1965م، ص3.

[3] معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية، مطبعة التضامن، بغداد، العراق، ط1، 1969م، ص17.

حضارة راقية، وقف عندها كثير من الدارسين، ويجد الدارس كثيرًا من الكتب التاريخية والأدبية التي تتحدث عن الحضارة العباسية التي فاقت غيرها من الحضارات[1].

لقد امتازت الحضارة العباسية بالوحدة والتنوع، فهي إسلامية عربية، بالإضافة إلى جمعها لكثير من معالم الفرس ونظمهم، وآدابهم، وعلومهم، حيث اندمجت الشعوب المختلفة من فرس، وروم، وأتراك، وهنود مع بعضهم بعضًا، مما أدى إلى تلاقح الأفكار، فتولدت إبداعات مختلفة أدت إلى ازدهار الحضارة العباسية في الجوانب المادية في بناء المدن، والقصور وغيرها وفي العادات الاجتماعية الحضارية، والتفنن في الطعام والشراب، بالإضافة إلى اهتمام المرأة العباسية بزينتها ومظاهر جمالها، وكذلك تطور الإنسان بفكره، ولغته، وتعامله مع الآخرين بأسلوب حضاري[2].

ولقد تناول شعراء العصر العباسي مثل البحتري الكثير من الصور الحضارية التي ستكون مجال لهذه الدراسة، حيث ظهر في هذه الفترة المبدعين الذي نجد في شعرهم تصويرًا لكافة تجليات الحضارة التي سادت في هذا العصر، كأبي تمام والبحتري،

---

[2] المومني، عمر، مظاهر الحضارة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2003م، ص7.

[1] المرجع السابق، ص8.

وابن الرومي، وبشار بن برد، وأبي العتاهية، وأبي نواس، وصريع الغواني مسلم بن الوليد، وغيرهم، وسيكون مدار هذه الدراسة شاعر مبدع واحد هو (البحتري).

وفي ختام هذا المبحث لا بد من القول أن الدارس لهذه الشاعر يجد الكثير من الصور الحضارية التي تؤكد حضارة العصر العباسي، لذلك سأستجلي كافة الصور الحضارية العباسية من شعره، وإن ربط هذه الصور الحضارية بالكتب التراثية والأدبية سيكون أمر مهم، علمًا أن دراسة واحدة لا تفي البحتري حقه في البحث والدراسة والتحليل والنقد. وإني لأرجو الله أن تكون هذه الدراسة محاولة أو بداية بسيطة لمزيد من الدراسات الموسعة التي تعتمد على التراث لمصلحة الجديد وأن تكون نافعة للباحثين والدارسين.

المبحث الثاني: الصور الحضارية في شعر البحتري

يُعدّ الشعر العباسي مصدرًا غنيًا للحضارة العمرانية، والفنية، والأدبية، والثقافية، والاجتماعية التي سادت في العصر العباسي، حيث نقل لنا عددًا من المظاهر الحضارية التي تنم عن ذوق حضاري متقدم لإنسان ذلك العصر، ويظهر ذلك – في أول صوره– ببناء المدن، والقصور، والبرك، ومظاهر العمران المختلفة التي امتدت على أرض العراق.

واستطاع الشعراء العباسيون ومنهم البحتري، أن يصوروا ما شاهدوه من مظاهر الحضارة نتيجة لقربهم من الخلفاء والأمراء، وإغداق الأموال عليهم، كما أن هؤلاء الشعراء قد بُهروا لما شاهدوه في القصور من مبالغة في البناء والتزيين الذي فاق كل وصف.

وصف العمران والمدن

لقد تناول البحتري نوعين من الوصف، أحدهما: وضف الطبيعة وهو قليل الحظ من الابتكار وأغلبه تقليدي، أما النوع الثاني فهو وصف العمران، وبخاصة المدن والقصور وما فيها من بدائع الفنون[1]. "وجاء شعره في الوصف ليس بدويًا وات حضريًا بل يترجح بين المنزلتين"[2].

فقد وصف البحتري مدينة المتوكلية التي بناها المتوكل على الله(245هـ) شمال سامراء وبنيت فيها الدور والقصور، والبحتري يعشق المظاهر والصور الحضارية، فقد خلبته الناحية العمرانية، وعاصر المدينة كبقية شعراء عصره، وقال فيها[3]:

أَرَى المُتَوَكّلِيّةَ قَدْ تَعَالَتْ ... مَحَاسِنُها، وأكمَلَتِ التّمَامَا
قُصُورٌ كالكَوَاكِبِ، لاَمِعَاتٌ ... يَكَدْنَ يُضِئنَ للسّارِي الظّلامَا

---

[2] غريب، جورج، العصر العباسي، دار الثقافة للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1970م، ص154

[3] حاوي، إيليا، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1969م، ص178.

[1] البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، م4، 1963م، ص 2007-2008

وَبَرٌّ مِثْلُ بُرْدِ الوَشْيِ فيهِ جنى الحَوْذانِ يُنشَرُ والخُزَامَى

إذا بَرقَ الرّبيعُ لَهُ كَسَتْهُ غَوَادي المُزْنِ، والرّيحُ الرُّخامَى

يؤكد البحتري أن المدينة بعد أن اكتمل بناؤها، أصبحت كالبدر التمام، فتعالى حسنها وبدت حولها الكواكب تضيء الطريق المظلم ليلًا، واكتست أرضه بحلة قشيبة من نباتات الزينة والتي تميزت بالروائح الجميلة الطيبة الممتعة.

وتشير الأبيات السابقة إلى افتتان البحتري ببيئة المدينة، ومظاهر الحضارة العمرانية، وانصرف إلى وصفها وتصويرها تصويرًا دقيقًا، ويمدح ويعظم بانيها، وهو المتوكل الذي كان البحتري من أقرب ندمائه ومرافقيه.

وصف القصور

تحدث الشعراء العباسيون عن القصور العباسية، باعتبارها رموز لحضارة الدولة، وتؤكد على مدة وتطور وتحضر البناء، والعمران، الذي انتشر في ربوع العراق، وفي مدينة بغداد التي وسمت بمدينة القصور[1]. وقد دُهش الشعراء العباسيون من روعة هذه القصور وجمالها، فوصفوها بما تستحق، ومن ذلك وصف البحتري لقصور المتوكل مثل الصبيح والجعفري حيث امتازا بجمال البناء وسط الرياض الغناء، فهو يقول[2]:

أَصْبَحَتْ بهجَةُ النّعيمِ، وَأمستْ بَينَ قَصرِ الصَّبيحِ وَالجَعفَرِيّ
في البِنَاءِ العَجيبِ، وَالمَنزِلِ الآ نِسِ، وَالمَنظَرِ الجَميلِ، البَهيّ
وَرِياضٍ تَصْبُو النّفوسُ إلَيها، وَتُحَيّا بوَرْدِهِنَّ الجَنِيّ
دارُ مُلْكٍ مُختَارَةٌ لإمَامٍ، أَحْرَزَتْ كَفُّهُ تُرَاثَ النّبِيّ

إن البحتري يرى أن قصور المتوكل التي تزخر بالبهجة وأشكال النعيم، هي ذات جمال رائع وخالد، بديعة الصنع وسط هذه الرياض الغناء، التي نسلب اللب لفرط حسنها وجمالها، "وكما كانت مصر مدينة للنيل في نشأة الحضارة، فإن منطقة العراق أيضًا مدينة لدجلة والفرات في ازدهار حضارتها"[3].

---

[2] الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، ط1، م2، 1993م، ص401.
[3] البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، مرجع سابق، ص 2452.
[4] البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، مرجع سابق، 1475.

لقد جر الخلفاء العباسيون الماء لهذه القصور من نهر دجلة لتبقى حدائق القصور وما حولها دائمة الخضرة والجمال، وكثيرًا ما ربُطت القصور مع بعضها بقنوات المياه، وهذا ما حصل بين قصر الساج والجعفري، مما جعل البحتري المفتون بذلك يقول[1]:

وَكأنّ قَصرَ السّاجِ خُلّةُ عاشقٍ ... بَرَزَتْ لِوَامِقِها بوَجْهٍ مُونِقِ
قَصْرٌ، تكامَلَ حُسنُهُ في قَلْعَة ... بَيضَاءَ، وَاسطَةٍ لبَحرٍ مُحدِقِ
وَوَصَلْتَ بَينَ الجَعفَرِيّ وَبَيْنَهُ ... بالنّهْرِ يحمِلُ مِن جُنوبِ الخَندَقِ
نَهرٌ، كأنّ المَاءَ، في حُجُراتِه ... إفْرِنْدُ مَتْنِ الصّارِمِ المُتَأَلّقِ
فإذا بَلَغتَ بهِ البَديعَ، فإنّمَ ... أنزَلْتَ دِجلَةَ في فِنَاءِ الجَوْسقِ

يؤكد البحتري أن قصر الساج قد تكامل حسنه وبنائه، فهو قصر عظيم البنيان، محكم الصنع، خال من العيوب، وقد وصل بين القصرين –الساج والجعفري– بنهير من نهر دجلة أضفى عليه جمالًا وروعة، كما وصل هذا النهر إلى ساحة قصر الجوسق الجميل رائع البناء.

كما وصف البحتري قصر الكامل زمن المعتز بالله وما فيه من جمال ورخام وزجاج وذهب فقال في ذلك مادحًا الخليفة[2]:

---

[2] عاقل، نبيل وحاطوم، نور وطرابين، أحمد، ومدني، صلاح، تاريخ الحضارة، مطبعة الكمال، دمشق، سوريا، ط1، 1965م، ص9.

[1] البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، مرجع سابق، 1642

لَمّا كَمَلْتَ رَوِيّةً وَعَزِيمَةً ... أعْمَلْتَ رأيَكَ في ابتِنَاءِ الكامِلِ
وَكَأَنَّ حِيطَانَ الزُّجَاجِ بَجَوّه ... لُجَجٌ يَمْحُنَ عَلَى جُنُوبِ سَوَاحِلِ
وَكَأنّ تَفويفَ الرَّخَامِ، إذا التَقَى ... تأليفُهُ بالمَنْظَرِ المُتَقَابِلِ
لَبِسَتْ منَ الذّهبِ الصّقِيلِ سُقُوفُهُ ... نوراً، يُضِيءُ على الظّلامِ الحافِلِ
وَتَنَفّسَتْ فيهِ الصَّبَا، فتَعَطّفَتْ ... أشْجَارُهُ مِنْ حُيّلٍ وَحَوَامِلِ

نلحظ إبداع البحتري في الوصف، فالقصر يمتاز بالعلو المفرط، الذي أذعر الحمام، وخشي الزلة والسقوط من علوه، وامتاز هذا القصر بحسن البناء، واستخدام الزجاج في حيطانه، بالإضافة إلى الرخام والنقوش على الجدران، ناهيك عن استخدام الذهب، والشجر الجميل الذي يحيط بالقصر، إن شعر البحتري يعكس بوضوح الحضارة والتقدم العمراني الذي عاشته مدينة بغداد، وأهلها، وأمرائها. إن ما سبق يشير إلى تركيز البحتري في وصفه للمظاهر الحضارية للقصور على حجمها الكبير، وشموخها في حواضر العراق زمن الدولة العباسية.

وصف البرك والنوافير

من اللوحات الخالدة التي أبدع البحتري في رسمها، وحّلق خياله في تصويرها، وأجاد في رسم تفاصيلها، تلك اللوحة التي رسمها لبركة المتوكل، حيث يقول[1]:

يا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتُها ... والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها
بحَسْبِهَا أنّها، في فَضْلِ رُتْبَتِها ... تعَدُّ وَاحِدَةً والبَحْرُ ثَانِيها
ما بَالُ دِجْلَةَ كالغَيْرَى تُنَافِسُها ... في الحُسْنِ طَوْراً وأطْوَاراً تُباهِيهَا
أمَا رَأتْ كالىءَ الإسلامِ يَكْلأُهَا ... مِنْ أنْ تُعَابَ، وَبَاني المَجدِ يَبْنيهَا

إن صورة الماء في جريانه وانسيابه في مجاري البركة، كالفضة المذابة التي تسيل، ولها بريق ولألاء، ومما يزيد في جمال فن التصوير عند البحتري، حركة المياه في البركة إذا مرت عليها النسائم اللطيفة فتحركها، وترسم تموجات لطيفة تشابه في حركاتها الخطوط أو الطرق التي يشكلها الزرد في الدروع، فتنتج لمعانًا وبريقًا نتيجة انعكاس أشعة الشمس عنها.

[1] البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، مرجع سابق، 2416.

الملامح الفنية في وصف الصور الحضارية لدى البحتري

تقوم عبقرية البحتري على قوة الخيال ودقة الوصف والتصوير، "ولعل الصورة الشعرية عند الشاعر تمثل المادة في هيئة معينة، فقد نجد روح الشاعر وذاته أو تجربته بشكل عام فيها معادلًا مناسبًا وهذه هي بداية إدراكه الحسي للأشياء"[1]

ومن الملامح الفنية لأسلوب البحتري في تصوير المظاهر الحضارية العباسية استخدامه لدقة الألفاظ وأناقة العبارة ورشاقتها، فقد صور القصور تصويرًا بارعًا قوامه المشاهد المتحمسة لمظاهر الجمال مضافًا لها الخيال الشعري، فيصف القصر الجعفري بالعلو والارتفاع إلى جانب الضوء والاخضرار، ويقول[2]:

قَد تَمّ حُسنُ الجَعفَرِيّ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَتِمّ إلاّ بالخَليفَةِ جَعفَرِ
مَلِكٌ تَبَوّأ خَيرَ دارٍ إقامة في خَيرِ مَبدى للأنامِ وَمَحضَر
في رَأسِ مُشرِفَةٍ، حَصَاهَا لُؤلُؤ وَتُرَابُهَا مِسْكٌ، يُشَابُ بعَنبَر

لقد توالت الألفاظ مضيفة صفة إلى أخرى متراصة واحدة فوق الأخرى مشكلة هذا الصرح الضخم، فهو في علوه وارتفاعه وكأنه جبل رضوى، ولعل عظمة هذا القصر ترمز إلى عظمة المتوكل، ولعل الشاعر كانت تعجبه الألفاظ الموحية المشخصة باعتبارها عنصرًا من عناصر الصياغة الشعرية.

---

[2] التطاوي، عبدالله، قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1981م، ص343

[3]البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، مرجع سابق، 1040

أما من جانب الإيقاع والموسيقى التي استخدمها البحتري في وصف الصور الحضارية، فقد تميز البحتري بموسيقى يرتفع رنينها في شعره، فالموسيقى عنصر يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا في صياغته وتقوم على أساس تنسيق ألفاظه وتوزيعها ثم مطابقة هذه الألفاظ من الناحية الصوتية للمعاني التي تدل عليها[1].

ويركز البحتري على استخدام حرف معين في بعض أو كل أبيات وصف (البركة الحسناء) مثلًا، وقد اعتمد في هذه المقطوعة على حرفي (السين والراء) وبلور إعجاله الفائق بالبركة بكل مفردات الطبيعة النابضة فينهل من النسيم والسماء والنجوم والبساتين بقوله[2]:

يا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتُها والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

بحَسْبِهَا أنّها، في فَضْلِ رُتْبَتِها تُعَدُّ وَاحِدَةً والبَحْرُ ثَانِيها

لقد ارتكز على حرفي (الراء والسين) واستخدم (أرى، رؤيتها، الحسناء، الآنسات)، برهافة حس وسعة خيال، واقتدار لغوي في استخدام الطاقات الصوتية الكامنة في مفردات اللغة مفردة أو مجتمعة، وقلو شوقي ضيف " فإنك لتشعر أنه أودع هذه القطعة كل ما يمكن من حلية الصوت وزينته فالألفاظ تعبر عن نفسها وعن معانيها، وعرف

---

[2] خليف يوسف، في الشعر العباسي: منهج جديد، مرجع سابق، ص141.

[3] البحتري، أبو عباده، ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، مرجع سابق، 2416.

كيف يختارها وكيف يلائم بينها حتى جعلنا نحس في هذه الحال من شدة اقتضائها لقوافيها"[1].

لقد أجاد البحتري في الأداء الموسيقي عند وصفه للمظاهر الحضارية وذلك بتكرار الحروف والتي لها صلة بحالته " فاتكاء الشاعر على حرف الراء يعود إلى الإمكانية الصوتية لهذا الحرف بالذات مما ساعده على تصوير عواطفه فضلًا عن توظيف الهاء الساكنة في بعض أشعاره، ليعبر عن مقدرة كبير في الصياغة الصوتية، ليعكس مظاهر وصور الحضارة في عصره.

[1] ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1977م، ص85.

الخاتمة

لقد نشأ البحتري في بيئة عربية خالصة، وعاش في بادية بني طيّ، ثم اتّصل بالحضارة في بغداد، ونال قسطاً وافراً منها، إلا أنها لم تغيّر مخزونه اللغوي، وحضوره الذكيّ، وطبعه البدوي الأصيل، ولم يلجأ إلى زخرفة القول، شأن أستاذه أبي تمام.

ويمكن أن نخلص مما سبق أن البحتري قد برع في فن الوصف، حتى عُدّ من أربابه، لما له من شهرة في وصف جماليات الكوْن، ومعطيات الحضارة الحديثة، كالقصور، والجنان، وقد عدّه نقّاد العصر الحديث إمام الصنعة، وأنه فريد الوصف جيّده، وقد أكسبه الوصف شُهرة تميّز بها على أقرانه، ويمكن أن نرجع دقته في الوصف لأنه:

- يُحسن تصوير المرئيات.
- يحرص على انتقاء الألفاظ الرشيقة الموحية، ذات المذاق الحلو، والرنين .
- ينأى عن التعقيد، والتراكيب الوعرة، والاستعارات الغريبة، والتشبيهات البعيدة.

وتخلص الدراسة إلى نتيجة مفادها أن البحتري يمثل قمة الازدهار في موضوع الوصف الذي شغل مكانًا من شعره، حيث دقة الوصف التذي تميز به، مع عذوبة الألفاظ، التي تمزح بين القديم والجديد، ففيها أصالة البداوة، ووجدانية الحضارة، وعذوبة الموسيقى.

وختامًا توصي الدراسة، بضرورة إجراء مزيد من الدراسات حول شعر البحتري، من نواحي مختلفة بلاغية، ونحوية، وأسلوبية. والله الموفق والمستعان.

المراجع

الأصفهاني، أبو فرج، **الأغاني (تحقيق: غنيم الغرباوي)**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، ج21، د.ت.

البحتري، أبو عباده، **ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي)**، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، م4، 1963م.

بدوي، أحمد، **البحتري: سلسلة توابع الفكر العربي**، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1980م.

بلهادي، حسين، **شعرية اللون في سينية البحتري، دراسات أدبية**، مركز البصيرة للبحوث والدراسات، العدد (21)، 2018م.

التطاوي، عبدالله، **قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1981م.

حاوي، إيليا، **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1969م.

الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، ط1، م2، 1993م.

خليف يوسف، **في الشعر العباسي: منهج جديد**، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، 1900م.

ديورانت، بول، قصة الحضارة (ترجمة: زكي نجيب محمود)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ج1، 1965م.

الصيرفي، حسن، آراء **النقاد القدامى في شعر البحتري**، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت .

ضيف شوقي، **تاريخ الأدب العربي: في العصر العباسي الثاني**، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج4، 1966م.

ضيف، شوقي، **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1977م.

عاقل، نبيل وحاطوم، نور وطرابين، أحمد، ومدني، صلاح، تاريخ الحضارة، مطبعة الكمال، دمشق، سوريا، ط1، 1965م.

غريب، جورج، **العصر العباسي**، دار الثقافة للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1970م.

مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، 1985م.

معروف، ناجي، **أصالة الحضارة العربية**، مطبعة التضامن، بغداد، العراق، ط1، 1969م.

ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت،م2، 1990م، (مادة: حضر).

المومني، عمر، **مظاهر الحضارة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2003م.

مؤنس، حسين، **الحضارة**. دار العبيكان للنشر والتوزيع، دولة الكويت، ط1، 1994م.

اليوسف، إسماعيل، **البحتري: أخباره ونماذج من شعره**، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا، ط1، 1988م.